

المحاضرة الأولى: كارل بوبر و النزعة التكوينية

لقد سادت في الفترة المعاصرة صراعات ونقاشات حادة بين العلماء وفلاسفة العلم، أفضت إلى تنافس شديد بينهم، حول فهم الآليات التي تحكم تقدم العلم، وتفسير كيفية بناء المعرفة العلمية، وتميزها عن غيرها من المعارف الإنسانية، ولعل أبرز تلك المواقف تتجلى فيما قدمه كارل بوبر (1920-1994) في هذا الخصوص، ذلك أن آراءه في التكوينية شكلت نقطة انعطاف كبرى في فلسفة العلوم. لقد اهتم بوبر في مشروعه الفلسفي، بدراسة وتحليل مشكلات العلم المعرفية والمنهجية في أبعادها الفلسفية، لقد تمحورت تساؤلاته الاستمولوجية، حول مشكلة نمو المعرفة، وكيف تتكون وتتقدم النظريات العلمية.

بالنسبة لبوبر، لن يتسنى لد ذلك إلا باعتماده التكوينية منطقاً ومنهجاً للعلم وقابلية التكوينية معياراً مميزاً له، عن غي ره من النشاطات المعرفية الأخرى. لقد حاول فهم التكوينية كنزعة فلسفية، وذلك بعرض تحليلي لمختلف العوامل التي ساهمت في تشكيل هذا المعيار.

1- عوامل تشكل مبدأ قابلية التكوينية:

لقد بلور كارل بوبر فلسفته الموسومة بالعقلانية النقدية المتفتحة، وذلك لتساوق حياته الفلسفية و العلمية مع اتجاه الوضعية المنطقية، وأعضاء حلقة فيينا إذ لها الفضل الأكبر في تبلور منهجه التكويني. تتميز بوبر عن حلقة فيينا ونفى كل ادعاءات انتمائه لها، لذا لقد أمضى القسط الأكبر من حياته العلمية، مناقشا و مجادلا لهم و لأنصارهم، ومدافعا عن معياره التكويني، حاول تقويض مبادئ فلسفتهم، وأسسها ومن المبادئ التي نقدها:

بدءا من أولوية التجربة الحسية، والمنهج الاستقرائي، ومعيار قابلية التحقق، و معيار التأييد، و أخيرا استبعاد أي دور للميتافيزيقا في أن تكون المعرفة العلمية. لقد مثلت هذه الانتقادات الخطوات الأساسية لمنهجه التكويني.

أ- نقده للاستقراء:

- ليس بالضرورة كل ما يصدق على الجزء يصدق على الكل.
- إن الاستدلال الاستقرائي يعجز عي تقديم التبرير المنطقي، والمنهجي العلمي.
- لا يمكن أن يكون معيارا صالحا لتميز المعرفة العلمية عن غيرها.

رفضه للاستقراء لم يكن نابعا من دوافع ذاتية، وإنما كان لموسغات ابستمولوجية، يقول في ذلك: " إن هدفي الأساسي لرفض المنطق الاستقرائي بإيجاز هو أنه لا يزودنا بعلامة تمييز مناسبة للخاصية الأمبيريقية للنسق النظري اللاميتافيزيقي، أو بعبارة أخرى إنه لا يزودنا بمعيار ملائم للتمييز "

ب- رفض معيار قابلية التحقق:

لأنه قائم على المنهج الاستقرائي، وعلى الملاحظة والخبرة الحسية، وأخيرا، انتقال الصرف من الجزئي إلى الكلي.

بعد دحضه لمعيار قابلية التحقيق، تم استبداله بمعيار القابلية للتكذيب، جازما أن وظيفة معيار "قابلية للتكذيب" ليست تبريرية، وإنما هي كشفية، لذا لقد استطاع بوبر أن يصل إلى المعيار القادر فاصلا بين النظريات العلمية وبين النظريات اللاعلمية (كل ما لا يدخل في نطاق العلم).

2- قابلية التكذيب ونمو المعرفة:

يعد إمري لاكاتوش أن بوبر مبدع معيار "قابلية التكذيب" ومكتشفه، إذ يقول في ملحق مقالة له " التكذيب وميتودولوجيا برامج البحث العلمي: " بدأ بوبر كمكذب...في... عام 1920، لكنه سرعان ما أدرك عدم استقرار موقفه ولم ينشر أي شيء قبل أن يبتكر التكذيب المنهجي، وكانت هذه فكرة جديدة تماما في فلسفة العلم، ومن الواضح أنها بدأت أصلا مع بوبر".

يرتبط مفهوم قابلية التكذيب عند بوبر دائما بتصوره عن نمو المعرفة العلمية، تحتاج إلى نظريات مفتوحة وليست مغلقة، تكون أكثر قدرة على التطور والتقدم، ولن تكون النظرية كذلك غلا إذا كانت تحتوي في ثناياها بعض العناصر التي تحتمل الكذب، يقول بخصوص ذلك: " النظرية التي لا تقبل الدحض بأي حدث يمكن تصوره هي نظرية غير علمية...و كل اختبار أصل للنظرية هو محاولة لتكذيبها...وإن محك المنزلة العلمية لنظرية من النظريات هو "قابلية للتكذيب" أو "قابلية التقنيد" أو "قابليتها للاختبار"

إن قابلية التكذيب تعني أنها نظرية مفتوحة على إمكان ظهور واقعة سلبية مستقبلا تدحض تنبؤاتها، وحينما يتم ذلك فإنها تسمح لنظرية أفضل منها أن تحل محلها استجابة للمتطلبات التي تفرضها هذه المشكلات المستجدة، وحيوية النشاط العلمي. مثلا: الجاذبية الأرضية 'لى أنها نظرية علمية، لكن احتمال انعدامها في أية لحظة، وإن تحقق ذلك يتم حينها تكذيب هذه النظرية، إذ تمنح للعالم قدرة على استبدال النظريات، مما يؤدي إلى النمو الحيوي والمستمر للعلم، وكل نظرية لا تقبل النقد هي نظرية غير علمية.

يهدف تصور كارل بوبر أن يكتسي العلم صفته الثورية من خلال استبعاده للفروض الكاذبة وابقائه على الفروض القابلة للتكذيب، يهدف أيضا إلى اكتشاف فروض جديدة عن طريق تفنيد النظريات المنافسة.

3- القابلية للتكذيب، المحتوى المعرفي، الاحتمال:

لقد ربط كارل بوبر هذه المفاهيم الثلاثة نظرا لطبيعة العلاقة الموجودة بينهما، أولا يقيم محتوى النظرية على فكرة بسيطة وواضحة هي أن المحتوى المعرفي لقضية مركبة من عنصرين سوف يكون أكبر مما يحتويه أحد عنصريها مساويا له على الأقل.

لنفترض أن القضية "أ" تقول ((سوف تمطر السماء هذا المساء)) و القضية (ب) ((سوف يكون الجو صحرا غدا)) و القضية المركبة منها ((سوف تمطر الس ماء هذا المساء ويكون الجو صحوا غدا)) فالمحتوى المعرفي للقضية (أ،ب) حسب "بوبر" يتجاوز ما يحتويه أحد عنصريها (أ) أو (ب)، بالإضافة إلى أن درجة إحتمال القضية المركبة (أ،ب) سوف يكون أقل من درجة احتمال أحد عنصريها.

وهذا يعني كله أن نمو المعرفة مشروط بصياغة نظريات ذات محتوى واسع وذات درجة قليلة من الاحتمال، أي وجود تناسب عكسي بينهما.ومادام غرض البحث هو تقدم المعرفة ونموها، فينبغي ألا يكون توافر درجة عالية من الاحتمال في النظريات هدفا من أهدافنا، لأن السعي وراء محتوى أوسع للنظرية ودرجة عليا من الاحتمال في نفس الوقت مطلبان متعارضان وهذا عكس موقف الاستقرائيين الذين يطلبون في النظريات درجة عالية من الاحتمال .